كتاب البلاغ
الأدبي
٢

عبدالمجيد الشوادفي

طريق الغربة

- رواية -

اهداء

الى أبنائي من الشباب الباحث عن النجاح خارج أرض الوطن ..

أقدم هذه الرواية : دعوة ليست للإمتناع عن الهجرة و الترحال ..

و لكن : لأن تكون هجرتهم عن وعي و فهم .

عبد المجيد ..

الفصل الأول

الدكتــور سيــد

فى حى العباسية القديم ، و فى زقاق الفحامين عاش المعلم عبده الفحام صاحب محل الفحم الشهير بالزقاق ، و فى الحى ، بل و خارج الحى بكامله ، ففى كثير من الأحيان يفد اليه زبائن من مختلف أحياء القاهرة و الجيزة ، لبشتروا منه الفحم الذى تتأرجح استخداماته ما بين شى اللحوم ، و هو مطلوب دائما من أصحاب محلات الكباب لأنه يقال أن الفحم يحسن الطعم ، و ينضج اللحم بطريقة تجعله محبوبا و مرغوبا من الآكلين ، و أصابت العدوى بائعى الذرة الخضراء فأصبحوا يستخدمون الفحم فى شويها ، و أيضا أصحاب المقاهى الذين يستخدمونه فى اشعال التبغ لمدخنى النرجيلة .

و لم يكن اسم الزقاق مشتقا من اسم المعلم عبده ، و لكنه كاسم المعلم عبده كان مشتقا من الفحم الذى كان الزقاق فى الماضى يزخر ببائعيه ، ثم عمل الزمن عمله ، و فعلت الأيام فعلها ، و مات من مات ، و تحول الزقاق الى بوتيك كبير يبيع

الملبوسات و الأطعمة المستوردة مع فترة الانفتاح التى زخرت بالمتناقضات .

.. و لكن بقى المعلم عبده على العهد ، و لم يستسلم لدعوة الترف والراحة و المكسب الوفير التى تحول اليها أغلب زملائه ، فحولوا محلاتهم الى بوتيكات تلمع بالأضواء ، و تتزين بأكثر الألوان ، و بقى محل المعلم عبده على حاله محاطا بتراب الفحم الأسود ، و مستخدما ميزانه ذى الكفات النحاسية ، و لم ير جديدا مما أحاط به من كل جانب فبدا المحل كمقبرة أحاطت بها ناطحات السحاب .

.. و رغم هذا لم يتحول زبائن المعلم عبده عن المحل ، بل هم يروحون و يغدون عليه ، و لأن جيرانه قد تركوا مهنة بيع الفحم ، و صناعته من جذوع الأشجار ، فلقد زاد عدد زبائنه و راجت تجارته ، و كثر مكسبه .

و المعلم عبده يقيم فى نفس البيت القديم الذى اشتراه والده الحاج أمين الفحام ، و هو نفس البيت الذى يقبع تحته محل الفحم .

و ما كان يجعل المعلم عبده قانعا بما تحققه تجارته من ربح ، هو أنه لم يرزق من الخلف بغير ولد واحد أسماه : سيد ، تيمنا باسم القطب المتصوف : سيد البدوى .

و لم يكن سيد طفلا خاملا ، بل كان دائما الأول على تلامذة مدرسته ، و ظل على هذا الحال حتى جاء ترتيبه الأول على القاهرة ، و منذ تلك اللحظة و المعلم عبده و صبيانه الذين يعملون فى محل الفحم لا يكفون عن مناداة سيد بالدكتور ، حتى انتقلت العدوى الى الزبائن و الجيران فصار سيد لا يعرف بغير : الدكتور، و كاد الناس ينسون اسمه الحقيقى !! .

و كان سيد سعيدا غاية السعادة بهذه التسمية ، و استمر على اجتهاده فى الدراسة ، و ظل أيضا متفوقا على أقرانه ، الى أن دخل فى سن المراهقة و اخشن صوته ، و بدأ يهتم بأشياء لم يكن يهتم بها

، و كانت تصرفات سيد تثير علامات التعجب فى عقل المعلم عبده ، و كثيرا ما كانت تثير سخطه على أولاد هذا الجيل ، و كان مما يشعل ثورة المعلم عبده اصرار سيد على هجر محل حلاقة الأسطى جميل المجاور لبيتهم و الذى ظل يحلق له شعره منذ ولد ، ليركب الترام ليحلق بشارع عماد الدين !! .

كما يصر على ارتداء تلك السراويل الملتصقه بساقيه المعوجين ، فكانت تفضح تشوه ساقيه ، و تؤكد على أن سيد لن يحيد عن التشبه بمن هم مثله من الشباب ، حتى وان جعله هذا التشبه مسخا يثير السخرية ! .

و كثيرا ما كان المعلم عبده يفضفض عن مشاعره تجاه ابنه و قلقه من تصرفاته ، فكان كلما شكا قال له أقرانه :

- دعه يا معلم يعيش حياته .

.. و لكن الى متى يتركه و شأنه ، و قد هجر سيد ترابيزة المذاكرة ، و أصبح يجلس أمام محل الفحم

يحملق فى الغاديات و الرائحــات فى شغف شـديد ، و علق أقرانه حينما شكا لهـم :

ــ اللـه يرحـم أيـامك يـا حـاج عبـده ، لــك ســبع زيجات ، و قصص حب و معارك مع الحاج الكبير بسبب جريك وراء النساء ، لم تكن تنتهى ! .

.. و ذات مـرة تحمـس المعلـم عبـده ، و قـرر أن يواجه سيد ، و لكن القرار جاء متأخرا فـى نهايـات العام الدراسى ، مما جعل المعلـم يـتردد طويـلا فـى الاقـدام علـى المواجهـة ، فقـد يصيـب مثـل هـذا الحديث سيد بنكسة دراسية فيرسب فـى الامتحانـات و هو فى السنة الأولى الثاموية ، و لقد عرف الحاج عبـده أنهــا مـن أصعـب سـنوات الدراسـة لكـثرة مقرراتها من المـواد و الكتب ، و ابتلـع المعلم عبـده قـراره و سكت علــى مضــض ، منتظـرا انتهــاء الامتحانات ، و هو لا يستطيع أن يكتم تساؤله :

ــ ماذا حدث لك يا سيد يا ابنى ؟!! .

و جاء الجواب ، عند ظهور النتيجة ، فلقد رسـب سيد لأول مرة فى حياته الدراسية ، و ليس فى مـادة واحدة ، و لكن فى ثلاث مواد !! .

و تذكر المعلم عبده أنه كان قد عاهد نفسه على التحدث لابنه ، فتخير فترة العصر ، و انضم فى هدوء ليجلس الى جانب سيد امام باب المحل ، و ترك مهمة تحصيل النقود و البيع لصبياته .

فكر المعلم للحظات ، ثم انتقى مدخلا جيدا للحديث و قال هامسا :

ـ هل علمت بنتيجة امتحانك الأخير يا سيد ؟! .

قال سيد و هو يسحب نظراته من فوق جسد غادة حسناء التفت فى ملاءة سوداء زادت من اظهار مفاتنها :

ـ سوف أذهب غدا الى المدرسة ، فلقد طلبت من جاد زميلى أن يخطرنى فور إعلان النتيجة ، و يبدو أنها لم تعلن بعد .

قال المعلم عبده فى هدوء الكاظمين الغيظ :

ـ بل لقد أعلنت و اتصل بى جاد و قال إنك قد رسبت فى ثلاث مواد .

صرخ سيد مستنكرا :

ـ ماذا .. سيد عبده يرسب فى الامتحان ، انها مؤامرة دبرت ضدى من ادارة المدرسة .

قال المعلم عبده :
ـ لا مؤامرة و لا شئ من هذا ، و لكنها نتيجة طبيعية لاهمالك المذاكرة يا سيد .. يا ابنى : لقد أردت أن أنبهك لانصرافك عن تحصيل دروسك ، و لكنى قلت لنفسى : سيد تلميذ مجتهد و هو طيلة عمره من الأوائل ، و لا بد أنك تعرف بالقطع أين تكون مصلحتك و أين هو صالحك ، و لكن ها هى ذى النتيجة يا سيد ، و هأنتذا تكاد تدمر أحلام أبيك برسوبك يا دكتور ! .

تساقطت دمعات من عينى سيد و مال على أبيه يحتضنه معتذرا ، و أعلن أنه لا بد معوض هذه الكبوة التى لا تليق بالدكتور ، و أقسم أن يخوض تحديا عظيما ضد وزارة التعليم ، فيتقدم لامتحان العام القادم نظام سنتين ، و بهذا يعوض الرسوب المهين الذى أحاطه بالخزى و العار ، و جعل ولد " كجاد " ينجح و يتقدمه فى الدراسة ! .

أراحت كلمات الدكتور نفس المعلم عبده ، وهدأت مخاوفه ، و شعر بالفخار لكونه قد أنجب هذا الشبل

و همس لنفسه : انـه أمـر غـير مسـتغرب أن يكـون ابن المعلم عبده هكذا !! .

- ٣ -

.. و مرت الأيام و الشـهور علـى المعلـم عبـده ، و هو يرقب ابنه سيد يختفى كل يـوم مـن البيـت ذاهبـا إلى المدرسة ، فلا يعود اليه الا مع خيط الفجر ، و كلما سأله :

- ألا تريح نفسك يا بنى ، ان ما تأتيـه مـن سـهر يدمر أعتى الرجال ، فى حين أنـك بطبعك ضعيـف البنية ؟! .

و كان رد سيد واحد :

- من طلب العلا سهر الليالى !! .

.. كانت علا فاتنة حى العباسية ، تقطن مـع أمهـا فى شقة جميلة فـى العباسـية الشـرقية ، و لقـد رآهـا سيد و هـو فـى طريقـه ذات ليلـة الـى المدرسـة المجاورة لسكنها ، فـدق قلبـه بـلا رحمـة ، و وقـف

مشدوها يبحلق فيها و قد وقفت بشرفة بيتهم بالدور الأول .

و لأن علا تعرف قدر جمالها ، و قدر تأثيرها على الرجال ، فلقد عطفت عليه و ألقت إليه بنظرة دلال أفقدته كل سيطرة ، فراح جسده يرتعد ، و لم يغادر موقعه فى تلك الليلة الا بعد أن حظى باشارة من أطراف اصابعها ، و كان ذلك بعد انتصاف الليل بقليل فالفترة فترة صيف و الشرفات هى الأماكن الوحيدة الرطبة !! .

و منذ ذلك اليوم اصبحت علا هى مدرسة سيد و أصبحت جلسات أم علا هى مقررات سيد اليومية : فهى التى تنفق فى سبيلها مصروفات الكتب و أجور المدرسين بحثا عن رضاها ، و استمالة لقلبها حتى يعطف على المحب الولهان ، فلا تحرمه من شرف السهر ببيتها .

كانت المرأة راضية كل الرضا عن قصة حب سيد لعلا خاصة و قد عرفت أن سيد هو وحيد المعلم عبده الممتلئ مالا ، حتى باتت تتمنى أن تنتهى العلاقة بجذب الأب الى طريقها فتوقعه فى

حبائلها فيكون عوضا عن المرحوم زوجها ، و لكن المعلم عبده لم يكن باله مشغولا بغير وحيده الدكتور سيد الذى يجد فيه تحقيقا لأحلامه القديمة فى التعلم ، و البعد عن مهنة الفحم و زقاق الفحامين ، فلم يلتفت الى تلك المرأة البضة حلوة القسمات رغم كل عوامل الزمن ، و التى جاءته أكثر من مرة تشترى الفحم ، و ترمى اليه بنظرات تذيب الحديد .

و هكذا باءت خطط الأم بالفشل مع الأب ، و لم تغضب لذلك ، فلقد رأت أن عصفورا فى اليد خير من أب على الشجرة ، لذا طلبت من سيد أن يطور علاقته بعلا و يعطيها صفة الشرعية و يتقدم لخطبتها ، و بذا تعطى الأمان لنفسها فلا تكون نقود سيد عرضة للإنقطاع بسبب أى طارىء .

و رحب سيد كل الترحيب بمطلب الأم ، فهو أيضا يريد أن يضمن زواجه من الفتاة التى ألهب جمالها عواطفه ، و لكن كيف له أن يطلب من أبيه مثل هذا الطلب و هو ما زال تلميذا يأخذ مصروفه اليومى من المعلم عبده ؟! .

تحدث سيد الى أمه ، طلب منها أن تتوسط بينه و بين أبيه ، و أن تلين قلبه لكى يوافق و ..

ـ هى مجرد خطبة يا أمة تساعدنى على الاستقرار و المذاكرة ، أما الزواج فيأتى فيما بعد الشهادة .

.. جاء رد المعلم عبده قاطعا حاسما :

ـ لا و مليون لا .. فمثل هذه الخطبة تعنى نهاية الدكتور سيد !! .

و سقط سيد طريح الفراش مريضا ..

ـ ٤ ـ

.. فهمت الأم بفطرتها أن مرض ابنها ليس فى جسده ، و لكنه من قلبه المحب ، و ذات ليلة انتهزت مداعبة المعلم لها ، و مارست ضغطها عليه و قالت له و هى تهمس فى دلال :

ـ انه ابننا الوحيد يا حاج و من لنا فى الدنيا غيره ، و ماذا يضير لو أنه خطب ، و ماذا يحدث لو أننا زوجناه ، و يا سعدك و يا هناءك يا حاج أن

تشيل بين يديك أولاد ابنك ، هل تكره أن ترى ذلك اليوم يا حاج ، أم تراك مسرورا بنومة ابننا التى تقطع القلوب ؟!! .

قال المعلم عبده ، بعد أن حك رأسه كعادته اذا ما فكر فى شئ :

— الحقيقة يا أم سيد ، أخاف أن ينشغل سيد بخطيبته عن دراسته .

قالت أم سيد و قد أدركت أن زوجها قد بدأ يلين و يقبل ما تعرضه عليه :

— و هل كان سيد خاطبا حين رسب فى دراسته العام الماضى ، و من يدرى يا حاج ، فلعله يشعر بالمسؤلية ، و تكون البنت قدم سعد عليه و علينا .

لم يرد أبو سيد ، و قالت أم سيد مستطردة :

— فكر فى الأمر على مهل ، و حين تشرق الشمس سوف أسمع رأيك .

و لم يغمض جفن لأبو سيد ، و ظل يتقلب فى فراشه الى أن أشرقت الشمس ، و أشرقت فكرة زواج سيد فى ذهنه ، فمن يدريه : لعل سبب

رسوبه رغبته فى النساء ، و لم لا و هو قد بلغ سن النضج ؟!! .

و حين أبلغ أم سيد بموافقته على خطبة علا لسيد أطلقت أم سيد زغرودة رقص لها قلب الدكتور طربا فلقد أدرك أنه قد انتصر فى حربه غير المعلنة على أبيه .

و بلا وعى قفز من فراشه متوجها الى مصدر الزغرودة ، فوجد نفسه فى حضن أمه ، و هى تقول له فى سعادة :

ـ ألف مبروك يا سيد أبوك وافق على أن يخطب لك علا .

اسرع سيد الى أبيه و انهال تقبيلا على يديه ، ثم اتجه الى باب الخروج ، و منه الى السلم ينتهب درجاته انتهابا !! ..

.. و لم يتوقف سيد عن الحركة إلا عندما وصل الى بيت علا ، و زف البشرى الى أمها ثم اليها حين عادت من السوق محملة بالمشتريات ، و بدأت الأم تضع شروطها لكى توافق على زواج ابنتها منه ، فالشبكة لابد أن تكون من الذهب عيار ٢٤ و لا

يقل سعرها عن عشرة آلاف جنيه ، و المهر ليس أقل من مثل سعر الشبكة ، و .. و طال حديث المطالب ، و المطالبة ، و سيد لا يكاد يعى منه شيئا ، فلقد كان مشغول الفكر بالمفاجأة التى فجرتها علا أمامه ، و هى تقول ان امتحان آخر العام لم يبق على انعقاده غير أيام معدودات .

فلقد وجد سيد نفسه أمام تلك الحقيقة مذهولا فلقد كان قد نسى تماما المذاكرة و الامتحانات ، و أصبحت علا هى كل حياته ، و ما هى الا لحظات حتى سأل علا :

ـ و هل يضيرك أن تتزوجينى لو لم أصبح دكتورا ؟! .

ضحكت علا فى دلال و قالت :

ـ بل انه يسرنى كثيرا ألا يكون زوجى طبيبا ، فأنا أخاف جدا من الأطباء ، و لا أحب تردد النساء على الدكاترة ، فأنا كالفريك لا أحب أن يكون لى شريك .

.. فرك سيد كفيه فى سرور ، و قال فى حسم :

ـ اذن يحيا الفحم و تحيا الفحامين .

صرخت الأم فيه محذرة :
– و لكن انتبه فابنتى لن تتزوج فى الزقاق .

قال سيد :
– و من قال إن زوجة سيد المعامين سوف تسكن فى حوارى الفحامين ، و حياتك يا حماتى أن علا ستكون لها شقة لم تحلمى بمثلها طيلة حياتك .

الفصل الثانى

الـواد حمـامة

تقدم المعلم عبده الى أم علا طالبا يد ابنتها ، و لـو أنه قد استاء من عدم وجود أخوالها أو أعمامها ، أو أى رجل ، ليستطيع أن يوجه اليه الحديث و يطلب منه يـد البنت ، خاصـة أن أم عـلا راحت تمطـره بنظرات تذيب الحديد من وراء ظهر الست أم سيد الطيبة ، و لو كان بين الموجودين رجل من أقربائها لأحست ببعض من الحياء !! .

و رغم كل شئ ، تحمل المعلم عبده ، و انتهت المهمة على خير ، و تمت خطبة علا الى سيد .

و تنهد المعلم عبده بعد أن اجتمع الشمل فى بيتهم كأنه قد ازيح من فوق صدره هم ثقيل قائلا :

ـ أظنك الآن سوف تأكل كتبك أكلا يا دكتور لتعود الى سابق عهدك متصدرا كل أولاد الحـى ؟! .

و أطرق سيد بعينيه الى الأرض حتى لا يقرأ الأب ما استقر فى ضمير ابنـه ، فلقد عزم سيد على أن يخبر الحياة !! .

و خرجت الإجابة من فم سيد خافتة تتعثر من الكذب :

ـ بالتأكيد يا أبى و إلا فإنه لا يليق بى أن أكون ابن المعلم عبده كبير الزقاق .

و أخفى النفـاق الذى تقبله المعلم عبده سعيدا ، عن الأب صيغة الممالأة التى بدت مفضوحة فى كل نبرة من نبرات سيد ، و ساعد على ذلك تداخل زغاريد أم سيد التى كانت تطلقها بين كل كلمة و كلمة .

و مرت الليلة بسلام .

.. و أيضا مرت أيام الامتحانات فى يسر ، و مع أول يوم من أيام الاجازة ، فوجئ المعلم عبده بسيد يدخل الى المتجر ، و يصر على مساعدة العمال ، قال المعلم عبده لنفسه : الولد كبر و أصبح عليه أن يتحمل المسئولية .

و فى اليوم التالى أصر على أن يوصل طلبات المحلات على الدراجة بنفسه ، و عاد المعلم عبده يقول لنفسه : الولد خاطب و لخطيبته مطالب ولابد أنه يستحى من طلب نقود ، و يريد أن يقدم لها الهدايا من عرق جبينه !! .

كان الدكتور ينطلق بالدراجة كالصاروخ ، و يعود بسرعة البرق ، و ليس كما يفعل عمال المتجر ، و

هو ما أثار اعجاب المعلم عبده ، و أطلق على ابنه : حمـــامة .

.. و أعجب سيد بالاسم ، و أصر على أن يناديـه الجميع باسمه الجديد : حمامة .

و لأنـه صبـى توصيـلات فلقـد أخـذ الإسـم تطـوره الطبيعى مع الأيام ، فأصبح : الواد حمامة .

و لم يغضب سيد من هذا التطور ، و ان استاء فى البداية قليلا ، ثم مـع مـرور الوقـت اعتـاد علـى أن يناديه الجميع بـ : الواد حمامة .

– ٢ –

.. ثم جاء الوقت الذى لابد من مجيئه ، و تدفقت الشائعات تتحدث عن قرب اعلان نتيجة الامتحانـات ، و لم يعر سيد الأمر التفاتا ، و لكن النتيجـة التفتت اليه و وصل من أخبر المعلم سيد بـان الـواد حمامـة رسب فى مواد السنتين !! .

جلس المعلم عبده امام المحل مهموما ينتظر عودة سيد مـن توصيـل أحـد الطلبـات ، فلمـا وصـل نـادى

عليه ، فلما أقبل أشار اليه أن يجلس الى جانبه ، فلما جلس قال له :

ـ اسمع يا دكتور ، لقد رسبت مرة ثانية فى الدراسة ، و رأيى ألا تجعل ذلك يؤثر عليك ، و أن تكف عن محاولة الجمع بين عامين دراسيين فى عام واحد ، و أن تفعل ما هو معتاد ، و تصبح تلميذا عاديا فى الصف الأول الثانوى ، و العمر أمامك ، فأنت لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرك ، و ليست أمامك مشكلة التجنيد فى الجيش لأنك وحيد ليس لك أخ ، و ليست لك أخت ، و إذا كنت محتاجا لنقود من أجل هدايا خطيبتك ، خذ ما تريد فخير الله علينا عميم ، و دعك من عملك بالمحل ، و تفرغ لدراستك و مستقبلك ، لتحقق أحلامى فيك يا دكتور.

و لم يرد سيد ، بل طأطأ رأسه و بدا ساكنا لا يحمل وجهه أى انفعال ، فلما طال سكوته ، قال له المعلم عبده يستعجله :

ـ هه .. ماذا ترى يا دكتور ؟ .

قال سيد بعد صمت لم يطل هذه المرة :

ـ يا أبت الدراسة لم تعد تهمنى ، اننى أريد أن

أعمل و أن اساعدك فى عملك ، فيكفيك ما تعبته من أجلى و من أجل أمى .

قال المعلم عبده فى تأثر :

ــ يا ابنى أنا ما زلت و الحمد لله فى صحة يحسدنى عليها من هم فى مثل سنى ، و على كل حال فكر يا سيد فيما قلته لك .

و انصرف سيد مطأطئ الرأس يفكر فى الطريقة التى سوف يتبعها مع أمه لتقنع أبيه برغبته فى ترك المدرسة ، و الحل سهل بالنسبة لأمه ، فسوف تقول له باستهانة : و ماذا أخذ الذين نالوا أعلى الدرجات الجامعية ، ان الولد سعد ابن أختها ، و هو طبيب فى مستشفى الحى لا يحصل من عمله على ما يأخذه صبى من صبيان المحل من نقود ، و غيره و غيره من العشرات الذين تخرجوا فى الجامعات و لا يجدون لهم عملا !! .

\- ٣ -

.. و تمت الهزيمة الثانية للمعلم عبده ، و ترك سيد

الدراسة ، و عاد للجلوس أمام المحل ، و تخلى عـن ركوب الدراجة ، بعد أن عاتبته علا على ذلك ، فلقد رأته احدى صويحباتها و سخرت منها و من خطيبها " أبو عجلة " ، و قالت له فى ختام لومها :

— ان زوج عـلا لا يصـح أن يركـب غـير سـيارة آخر موديل .

و ذات يوم ..

كان سيد يجلس جلسته المعتادة أمـام المحـل ، وإذا بصلاح زميل الدراسـة القديـم يمـر علـى مبعـدة مـن أمام الزقاق ، أسرع سيد بـالوقوف ، ثـم انطلـق الـى شارع العباسية الرئيسى مناديا على صـلاح ، حتـى أدركه فى ميدان بـاب الشـعرية ، راح سـيد يلهـث و هو يضم صلاح الى صدره متسائلا :

– ألا تعرفنى يا أبو صلاح ؟! .

انتبه صلاح و قال آسفا :

– و هـل هنـاك مـن ينسـاك يـا دكتـــور سـيد يـا عبقـرى ؟! .

أخذه سيد من يده و اتجها الى أقرب مقهى ، و راحـا يستعيدان أيـام الدراسـة ، و لما سأل صلاح و هـو

يتأمل ملابسه المتناسقة الغالية :

ـ واضح يا أبوصلاح أن الأمور ميسرة ، و أنك فى الجامعة الأن .

قال صلاح :

ـ الجامعة لأمثالك من العباقرة يا دكتور ، اما أنا فقد تركت الدراسة و سافرت لألمانيا و أعمل الأن شهرين هناك و شهرين هنا ، و المكسب يا أبوالدكاترة بالكوم خاصة فى عملية استيراد السيارات القديمة ؟ .

تألقت عينا سيد بالسعادة ، فهذا هو طريق النجاح بحق ، و افترق الصديقان على وعد من صلاح بأن يزور سيد .

و لم يفارق كلام صلاح ذاكرة سيد ، فلقد ظل طوال اليوم يستعيد حديثه عن ألمانيا ، و عن شوارعها ، و عن نسائها ، و عن عملية شراء السيارات المستعملة بأرخص الأسعار و شحنها الى مصر ، و بيعها بأضعاف ثمنها ، و يا سلام لو اقتنيت سيارة يا أبو السيد ، و تجلس البنت علا بجانبك ، و يا مائة حلاوة لو كانت السيارة مكشوفة

بلا سقف ، و نكيد العزال !! .

و بعد أيام اختفى سيد مع صديقه صلاح ، ثم ظهر فى اليوم الرابع يحمل فى يده وثيقة سفر للخارج ، و أعلن أبيه بأنه مسافر الى اليونان ، و أنه قد وجد مستقبله الحقيقى ، فما كان التعليم الا وهم ، و ما كان الواد حمامة الا قلة عقل !! .

و لما سأله عمال المفحمة :

– و لماذا اليونان يا دكتور .

راح يشرح لهم تماما كما رأى صلاح و هو يشرح له مزايا السفر الى هناك :

– اسمع يا خويا سوف نبدأ الكلام من آخره ، الواحد منا لا يعرف الا لغته العربية ، و هناك مهاجرون كثيرون من البلاد العربية ، أيضا هناك يونانيون عاشوا فى مصر ، القصد أنك لن تجد نفسك غريبا ، و لن تقف مشكلة اللغة عقبة أمامك ، كما أن الشغل هناك كثير سواء فى المينا أو فى المطاعم ، و الأجر يا عينى بالدولار .

هنا همس أكثر من عامل فى أذنه يستحلفونه أن يرسل اليهم فور أن يثبت أقدامه هناك .

و بلا غضاضة قال لهم سيد فى صدق :

ــ اسبوع أو اسبوعين و تحصلونى بإذن الله .

ـ ٣ ـ

و سافر سيد مودعا بدموع أمه و بذهول ابيه المعلم عبده الذى أصبح يشك كثيرا فى أن يكون ابنه قد أصيب بمس من الشياطين ، فلم يكن سيد طيلة عمره على هذا الحال من التقلب و الجنون ، و لذلك صمم على أن يرافق ابنه الى باب المركب ، و سافر معه و برفقتهم أم علا و علا ، و كانت آخر كلمة قالتها علا فى أذن سيد :

ــ احترس من نساء الجريج يا سيد ، و اياك أن تنسى السيارة و انت راجع .

و جاء رد سيد فكان مؤكدا :

ــ و حياتك سيارتان ، واحدة لك و واحدة لابننا ان شاء الله .

ثم برقت فى ذهنه فكرة ، فالتفت الى حيث وقف المعلم عبده و قال :

- ما رأيك يا أبى ارسل لك بمجموعة من السيارات ، و نحول المحل الى صالة عرض سيارات ، و بـلا هم الفحم و سواده !! .

و فـرت دمعـة مـن عيـن الأب و هـو يضـرب كفـا بكف و يستدير مبتعدا من صالة الميناء ، و هو يتمتم لنفسه :

ـ عليك العوض و منك العوض يا رب الولـد سـيد جن و لا حول ولا قوة الا بالله .

.. و اكتملت المأساة فى عقل المعلم عبده ، حين انطلقت صفارة الباخرة غليظة كئيبة ، كأنها صـوت غراب ينعق معلنا قدوم الخراب ، فأجهش الرجل فى البكاء ، و خرج لا يلتفت الى شئ حتى الى اشـارات سـيد الملوحـة بـالوداع ، و حين وجد نفسه خـارج دائـرة الميناء ، تنبـه الـى أنـه جـاء مـن القـاهرة فـى صحبة خطيبة ابنه و أمها ، فوقف أمام الباب ينتظـر خروجهم ، الـى أن وصـلا ، و ركبـا السـيارة التــى أقلتهم الى القاهرة .

أقلت سيد الباخرة الى أثينا ، و على السطح تعرف الى مجموعة من الشباب الذين دفعتهم المغامرة الى البحث عن عالم آخر يرتادونه ، فلعله يحقق طموحاتهم في الثراء و الشهرة .

و مرت الأيام ، و أحلام معرض السيارات و عشرات منها تقف أمام محلهم ، و المعلم عبده يصول و يجول بين الزبائن تتقلص يوما من بعد يوم ، الى أن صار حلم السيارة الواحدة شبه مستحيل ، فلم تكن الحقيقة كما سمع من كلام ، فلا العمل متاح لكل من يرغب ، و لا الأجور بالسخاء الذى كان يتحدث به صلاح و الشباب الذين تعرف عليهم فى المركب ، و لم ير أحدا منهم بمجرد خروجهم الى رصيف الميناء ، كما أن تكاليف المعيشة مرتفعة جدا !! .

.. و عمل سيد بعد أيام طوال من البحث غسالا للأوانى بأحد المطاعم ، و كان قد ادخر ما يقرب من المائة درخمة فاشترى كاميرا رخيصة ، و طلب

من أحد المارة أن يصوره بجانب احدى السيارات الفخمة ، و أمام الفندق الذى يعمل به ، و كتب فى رسالة الى أبيه أن هذا هو الفندق الذى أعيش به ، و كتب الى خطيبته أن هذه هى السيارة التى أملكها و أتريض بها على الكورنيش كل ليلة بعد أن أنتهى من عملى كمدير لفندق خمس نجوم ، و لم ينس أن يكتب خمس بالانجليزية !! .

و يشاء حظ سيد أن تنزل سيدة مصرية من الأثرياء بالفندق الذى يعمل فيه ، و يكون فى ذات لحظة وصولها سيد هو حامل الحقائب الذى يستقبلها ، لتغيب العامل الأساسى عن العمل فى ذلك اليوم ، و لضرورة أن يكون هناك من يحل مكانه ليكون فى استقبال الزبائن ، رأت ادارة الفندق انقاذا للموقف أن يحل سيد مكان العامل المتغيب ، أما الأطباق فمن الممكن أن تنتظر سيد الى آخر الليل .

و لقد اكتشفت السيدة المصرية أن سيد مصرى من بلدها منذ لحظة أن رأته ، لما يبدو على ملامحه من مصرية صميمة ، و لقد لفت نظرها ، و شد

اهتمامها ذلك الحزن الذى تنطق بهُ ملامحه ، و يكشف عن هم عظيم يعيش فيه ، و لما سألت عنه ادارة الفندق عرفت بأنه قد جاءهم منذ شهور لا تكتمل الى العام ، و أنه يعمل بأجر يمكنه من ادخار مئات قليلة من الدرخمات كل اسبوع ، و لقد جاءتها ادارة الفندق بعد ساعات بصورة من وثيقة السفر الخاصة به .

و بعد أن درست السيدة كل ما عرفته عن سيد ، و عن الملابسات الخاصة بحضوره الى اليونان ، كان قرارها أن هذا هو فتاها المنشود ، و أن عليها أن تبدأ العمل فورا .

الفصل الثالث

سيدة الحظ السعيد

- ١ -

و بعد تفكير متأن ، أرسلت " حبيبة " أحد رجالها الى سيد حيث يعمل بمغسلة الأطباق ، وفوجئ سيد بعملاق ضخم يضع يده على كتفه ، و يخبره بعربية ركيكة أن الهانم تريد أن تراه بجناحها بالفندق فورا.

و لأن سيد قد عرف أن العمل عمل ، و أنه هنا غيره هناك فى مصر بمحل المعلم عبده يتصرف كيف يشاء ، و غاية الأمر كلمة اعتذار و عفا الله عما سلف ، و أنه اذا ترك مكان عمله ، فقد لا يعود اليه مرة ثانية و يعود الى سكنى الأرصفة و البحث عن عمل جديد ، أو كحد أدنى سوف يفقد أجر اسبوع كامل ، فلقد قرر أن يقول رغم خوفه من النتائج التى قد تترتب على عدم طاعته للعملاق :

ـ شكرا لا أستطيع أن أغادر مكان عملى .

.. و لكنه وجد رئيسه يشير إليه مبتسما بأن يستمع الى العملاق ، و طلب منه أن يترك العمل و يذهب معه .

و سـار سيد يضـرب أخماسا فى أسداس ، و هو لا يدرى أى هانم تلك التى تطلبه ، و هو لم يجد على امتداد عام من تهتم بـه ، أو حتى تبدى قبولا لمعاكساته ممن صادفهن فى الطرقات .

توقف العملاق أمام بـاب الجنـاح بعـد أن رن الجرس بطريقة خاصة ، و انفتح الباب بعد لحظـات ، و وجد سيد نفسه أمام سيدة رائعة الحسن فـى ملابس محتشمة ، تبتسم له ، و تدعوه الى الدخول ، و تبعها سيد و خطواته تتعثر فى سـجادة الممشـى ، و جلست السيدة فى أول مقعد ، ثم سألته بعربية تنم عن كونها مصرية صميمة :

ـ مصرى طبعا .

ابتلع سيد لعابه بصعوبـة و هـو مضطـرب ، لا يـدرى مـا يـراد بـه ، و حكايـات زملائـه عـن العصابات و المخدرات تكـوى رأسـه بـالخوف و التوتر ، لذا أجاب بعد أن وجد صوته بصعـوبـة :

ـ نعم يا هانـم ، وحضرتـك هـل أنـت أيضـا مصرية ؟ .

قالت مخففة من ارتباك سيد :

- ألا يبدو على أننى مصرية ؟ .
قال سيد بصدق :
- لو لم تتكلمى لحسبتك أوربية ، فملامحك و لون بشرتك يقولان ذلك .
ابتسمت شاكرة المجاملة اللطيفة ، و قالت :
- هل تعرف لماذا طلبت مقابلتك ؟! .
قال سيد و قد أحس بالحصار :
- فى الواقع أنا فوجئت ، و لكن لعل حضرتك تريدين السؤال عن أحوال البلد .
قالت و نبرة حزن تلوح فى صوتها :
- الصحف و المجلات تصل كل يوم ، و أخبار البلد معروفة لمن يريد أن يعرف ، و بالقطع أنت تعرف أن التليفونات موجودة ، و ممكن فى ثانية تستمع الى صوت من تحبهم ، هل جربت ان تفعل ذلك ؟ .
قال سيد فى صدق و هو يجد الصدق فى نبرات السيدة :
- فى الواقع عملتها مرة و لم أكررها لأن أسعار المكالمات الدولية نار .

فى بساطة شديدة أشـارت الـى التليفـون القـابع الـى جانبها ، و قالت :

ـ تفضل و اطلب من تشتاق الى سماع صوتـه ، و لا تقلق من سعر الفاتورة .

و بدا الـتردد علـى سـيد ، و ان صرخـت كـل ملامحه : ياليت .

و لم تفت رغبته علـى عينيهـا الخبـيرتين ، فقـالت تشجعه :

ـ تفضل تكلم مع من تشاء ، انها دعـوة صادقـة ، و ليست عزومة مراكبية .

و بيد مرتعشة مد سيد أصابعه و أدار رقم تليفـون المعلم عبده ، و بعد لحظات قال سيد :

ـ آلو .. أنا سـيد .. كيـف حـالك يـا ابـا ، و كيـف حال أمى ، و علا .. أنا بخير ، أنت كيف حـالك .. سأصل قريبا .. ألف سلامة يا آبا .. ألف سلامة ..

ـ ٢ ـ

بيد مرتعشة وضـع سيد سمـاعة التليفـون و هـو يقاوم دموعه ، و قد اشتد به الحنين .

.. و كانت هى تراقبه بطرف عينها ، و حين لم تعد هناك مقاومة ، تقدمت تربت كتفه بحنان قائلة :

– خير يا سيد ، هل هناك ما يسوء ؟ .

و لم يعد هناك سبيل الا الافصاح ، و تدفقت دموعه يذكيها شوقه الشديد لابيه و أمه و خطيبته و للمحل ، و الزقاق ، حتى الفحم وجد نفسه مشتاقا الى رؤيته !! .

.. و انفرط عقد سيد حنينا ، و قص عليها كل ما كان فى حياته من آمال ، و أحلام ، و نجاح و فشل ، و كذب و صدق ، و عن مرض أبيه الذى سمع به ، و عن حلم السيارة الذى لا يستطيع تحقيقه ، و يحول بينه و بين العودة ، فلا يستطيع العودة بكل فشله فى الغربة بعد أن قطع كل ذاك الطريق ، و بنى كل تلك الآمال .

كل شئ قاله لها فلم يترك فى حياته صغيرة و لا كبيرة الا و قالها ، و هى تستمع اليه فى سعادة بالغة ، فلقد صدق حدسها ، فهذا هو فتاها المنشود !! .

اقتربت منه ، جلست بجانبه تكاد تكون ملتصقة به

و همست فى حنان :
ـ هل تعرف يا سيد لماذا اهتممت بك منذ رأيتك ؟ .
هز سيد رأسه و لم يعقب ، استطردت :
ـ لأنه كان لى أخ وحيد يشبهك تمام الشبه ، و لكنه استشهد فى حرب ١٩٧٣ ، و لقد ارتعشت كل أعماقى بمجرد أن لمحتك على باب الفندق ، لقد جعلتنى أسهر طيلة الأيام الماضية ، لا أكاد أجد الراحة للحظة واحدة ، أسأل نفسى كيف أرتاح و أخى يعمل بغسل الأطباق ، وينام فى حجرة العمال .
ضغطت على جفونها بشدة ، فأسقطت دمعات ، و رفعت اليه عينين ما رأى فى الدنيا أجمل منهما ، لا علا ، و لا أم علا ، و قالت له :
ـ اسمع يا سيد ، منذ اللحظة ، سوف تترك حجرتك ، و سوف تترك قبلها حكاية غسل الأطباق ، و سأحجز لك حجرة خاصة ، و الآن اذهب لتنقل متاعك اليها .
وقف سيد مذهولا مما سمع ، ثم استجمع شجاعته

، و قال محتجا :

ـ و لكن يا هانم ، أنا لا أستطيع أن أدفع أجر الاقامة بالحجرة لغير اسبوع ، و أعود مفلسا ، لا أجد حتى ثمن تذكرة العودة بالمركب !! .

قالت فى بساطة شديدة :

ـ اعتبر نفسك ضيفى منذ اللحظة ، أما مسألة السيارة ، و تذكرة المركب ، فهذه جميعا سندبر أمرها بعد أيام .

وقف سيد وقد اشتدت به الدهشة ، يحك قفاه ، و هو لا يكاد يستوعب كل ما قيل : ترى هل هذه يا رب ليلة القدر قد فتحت لى أبوابها ؟!.

ثم أفاق على يد الهانم تلمس كتفه ثانية ، وهى تبتسم فى سعادة مما ترى على و جهه من سعادة و انبهار قائلة :

ـ ماذا بك يا سيد ، هل تريد أن تبقى طيلة العمر هنا ، و لا تفعل شيئا غير الندم ، لا تشغل بالك ، اذهب فقط الى موظف الحجز بالفندق و سوف تجد أن كل شئ منتهى ، و بالقطع سوف أراك بعد يوم و اثنين ، لأننى سأسافر لقضاء بعض الأعمال

خارج أثينا .

لم يتحرك سيد ، و رفع نظره اليها بكل العرفان ، و سألها :

ـ اذن هل تسمح لى الهانم بأن أعرف حتى اسمها ؟ .

قالت مبتسمه و هى تشده من يده لينهض :

ـ نادنى بـ .. أختى ، هل ترضى أن أكون لك أختا ؟! .

قال سيد بصدق :

ـ بل أنت الملاك الذى أنقذ حياتى .

وجد سيد كل ما قالته له صدقا من صدق ، فالغرفة محجوزة باسمه ، و اطمأن الى أن أجرها مدفوع مقدما ، فسارع بنقل ملابسه اليها ، و بات يحلم بالمعجزة التى حدثت :

سيعود الى وطنه !! .

.. و قد تكون معه السيارة !! .

سوف ينام على سرير حاشيته معبأة بالماء و يستطيع أن يضغط على زر فتدغدغ بالحركة عضلات جسده لكى ترتخى عضلاته و ينام هنيئا ،

فلقد رأى ذلك فى خدمته لمن ينامون على ذلك الفراش ، حين كانت ادارة الفندق تضطر للأستعانة به فى نظافة الغرف حين يتغيب أى من العمال ، و لكن أن ينام على مثل هذا الفراش ، فهذا ما لم يخطر بباله ، وهذه هى القصص التى سوف تروى فى مصر فى تفاخر ، و بالقطع لن يصدقوه ، و لابد من دليل يثبت ذلك ، و أسرع يخرج الكاميرا و يضبط التوقيت و الزاوية ، ثم يستلقى على السرير لتلتقط له صورة تثبت باليقين أنه فعل ما سوف يحكى عنه !!

ثم نام سيد فى استغراق ، كما لم ينم منذ جاء الى اليونان .

\- ٣ -

.. و كما يحدث فى الأساطير اختفت فجأة سيدة الحظ الجميل كما ظهرت فجأة ، و انتاب سيد هم عظيم ، فلقد بدأ حلم السيارة و العودة الى الوطن يتسرب من عقله ، و انتابه كرب عظيم جعله فى

اليوم الخامس يجمع متاعه فى حقيبة و يقرر الرحيل الى الوطن فلديه ثمـن تذكرة المركب ، و ليشترى بعضا من الملابس و الهدايا لابيـه و أمـه و لعـلا و لحماته ، بعد أن بحث عنها فى كل مكان و لم يعـثر لها على أثر ، فكأنها قد ذابت و تلاشت !! .

و بدأ سيد فى النزول الى السوق و شراء الهدايا ، و لكنه حين عاد ذات يوم ، وجد أكبر و أسـعد شئ مـن الممكـن أن يتمنـى حدوثـه ، وجـد سـيدة الحـظ السعيد بحجرته تنتظره ، و بمجرد أن رأتـه محمـلا بالمشتريات أدركت أنه قد انتابه اليأس ، و تسـاءلت فى خبث :

– هـل نويت على السفر قبل أن تـودع أختـك يـا سيـد ؟! .

قال بانفعال صادق :

– يا هـانم كيـف يكـون لـى هذا الشـرف ، و هـل يعقل أن يكون مثلى أخ لك ، انك يـا هـانم تسـخرين منى ليس أكثر ، و لقد قررت أن أعود الى مصر ، و اذا عجب علا أن أعود بلا سيارة فأهلا و سهلا ، و اذا لـم يعجبها ، فعليها أن تبحـث عـن عـريس

غيرى .
قالت عاتبة :
ـ أى يأس هـذا الـذى أرى أخـى عليـه ، هل مـن المعقول أن أكون على قيد الحياة ، و لا أسعد أخـى الوحيد بعد أن أعاده الله الى ؟!!.
و ضغطت علـى الجفنيـن فأسـالت دمعـات جعلـت سيد ينسى كل الدنيـا ، و لا يصبـح لـه هـدف الا أن يمسح دموعها ، و لكـن كيـف و هـو لا يسـتطيع أن يلمسها ، و لا يحلم بذلك ، فلابد و أنهـا هشـة حتـى لتذوب لو لمستها يد مثـل يـده تعـودت علـى تكسـير الفحم ، و غسل الأطباق!!.
قال و هو يكاد يبكى :
ـ يا هانم أنا أفديك بعمرى .
قالت :
ـ اذن تنفذ كلامى و لا تعارضنى .
قال :
ـ أأمرى يا هانم .
قالت :
ـ هل لك أن تنظر من نافذتك على مدخل الفندق.

نهض سيد الى النافذة مطيعا و نظر،سألته:
ـ ماذا ترى ؟ .
قال :
ـ أرى الزهور ، و مسيو كستلو ، و العم ديمترى البواب ، و سائق يجلس الى جوار سيارة شديدة الفخامة .
قالت مبتسمة :
ـ هذه هى سيارتى التى ستسافر معك الى مصر لتباهى بها أحبابك ، و تخرص بها شماتة الشامتين .
كاد سيد يسقط من شدة الهول الذى رأى ، و لكنها خففت عنه قائلة :
ـ لا تقلق فسوف تدخل بها ترانزيت ، و لكن دعك من هذا و تعال لأحكى لك ماذا فعلت خلال الأيام الماضية .
و ببساطة شديدة جذبته من يده ليجلس بجانبها ، و استطردت قائلة :
ـ اسمع يا سيدى ، لقد سافرت الى مناطق الصناعة ، و استفسرت عن أنواع السيارات التى يمكن أن نتاجر فيها بمصر ، هل تذكر مشروع

صالة عرض السيارات الذى كلمتنى عنه ؟.. لقد قررت أن أشاركك فى هذا العمل ، و لكن هناك بعض الأمور التى يجب أن تعرفها ، و أولها أن شراء سيارة لك أمر سهل ، لكن لابد و أن تكون قد أتممت عامين كاملين مقيما خارج مصر ، و لذلك السبب قررت أن تدخل بسيارتى الخاصة ترانزيت ، يعنى تشحن باسمك ، و تعود معك ، و بوليصة الشحن قد تمت خالصة الثمن ذهاب و عودة ، كذلك أنهيت اجراءات دخولها الى مصر ، و لأنك رجل أعمال مغترب و تملك مثل هذه السيارة الفخمة ، فلا يصح أن تسافر مثل فقراء القوم بالمركب ، بل انك ستسافر قبل موعد وصول السيارة الى ميناء الأسكندرية بعدة أيام ، و عليه فلقد تقرر أنك منذ اللحظة تضع نفسك تحت أمر سائق السيارة الجالس تحت لكى يدربك على طريقة قيادتها قبل شحنها الى الأسكندرية بعد يومين ، أما خلال رحلة المركب فلك أن تتفسح فى طول اليونان و عرضها ، حتى تسرع بالعودة من مصر ، و لا تبطئ فى العودة حتى نبدأ مشروعنا فى تصدير

السيارات .

.. و عاد سيد الى حال الذهول و الدهشة : أى خيال هذا الذى قيل ، و أى حلم ذاك الذى كان من الممكن أن يرى فيه هذا الواقع الفذ الذى يعيشه ؟؟ .

.. تساءلت ضاحكة من الحال الذى أوصلته اليه :

ـ الا تبدأ التدريب على القيادة ، أم تراك ريد تهشيم سيارتى فى مصر ، و تعيدها الى و أنت راجع قطعة صفيح ؟!! .

اندفع سيد خارجا و هو يهتف كالأطفال :

ـ ربنا يعمر بيتك يا هانم .



الفصل الرابع :

العودة إلى الوطن

كانت استجابة سيد فى تعلم القيادة كبيرة جدا ، حتى أنه تعلم قيادة السيارة فى ثلاثة أيام ، مما أثار دهشة السائق اليونانى و أثار الحبور عند حبيبة .

و لم يكن السائق يدرى أن سر الإستجابة المذهلة هو رغبة سيد الشديدة في العودة الى أرض الوطن منتصرا ، و معه مثل هذه السيارة التى يعمل كل شئ فيها بالأزرار .

و تم شحن السيارة باسم سيد عبده الفحام الى ميناء الأسكندرية ، لتكون فى انتظاره حين يصل.

و مرت الأيام ، وسيد منتش بما يحدث حوله ، يعيش محلقا فى خيالات مصر ، و ردود الأفعال التى سوف تنتاب الزقاق و الأصدقاء ، و قد راح يتحدث إليهم عن مغامراته ، كل واحد منهم يخاطبه بما يتفق و أحلامه .

و اقتربت الأيام من لحظة السفر ، و حينئذ استدعته حبيبة و وضعت فى جيبة رزمة من أوراق النقد ، نظر سيد اليها ممتنا ، و قال و هو يعيد

النقود اليها :
– أبعد كل ما قدمت لى من فضل ، أقبل أن آخذ منك نقودا ، انك لو طلبت منى عمرى لوهبته لك بلا تردد ، لقد رفضت فكرتك عن التجول فى اليونان حتى لا أكلفك المزيد من النقود ، ثم اذا بك تريدين اضافة مزيد من أفضالك إلى عنقى الذى لم يعد قادرا على الوفاء بما علقت فيه من قبل حتى لو عشت العمر كله خادما تحت رجليك .
زاد تمنعه ، اصرار حبيبة على أن يتناول منها رزمة النقود ، و هى تقول :
– و هل من المعقول أن سيد بك مالك السيارة الفارهة ، يعود و ليست معه هدايا تليق به ؟!
زاد كلامها من تأثره ، و قبل ـ بعد الحاح شديد ـ أن يأخذ النقود ليرضيها قائلا :
– سوف أقبلها بشرط أننى حين أعود الى هنا تجعلينى أعمل عندك سائقا خاصا بك .
قالت مداعبة :
– و هل من المعقول أن يعمل الأخ سائقا عند أخته ، هل نسيت يا أستاذ أننا سوف نصبح شركاء

فـى تجـارة السـيارات ، فلنقـل إنـه مـن الممكـن أن تخصمهـا مـن أربـاح أول خمـس سـيارات نبيعهـا ، فهذا هو الكلام المقبول و المعقول ؟! .

ثم غيرت مجرى الحديث قائلة :

ــ قبـل أن أنسـى ، لقـد أحضـرت لـك بعـض الملابس لتسافر بها ، ستجدها فى حجرتك .

.. و خرج سيد من حجرتها و الدنيا تدور به ، فمـا يحدث شئ لا يصدقه عقل ، و لا يصل اليه خيال ، و لكن كله واقع يحدث ، و كلها أمـور ماديـة ، فهـا هى ذى صورة من وثيقة شـحن السـيارة فـى حقيبـة يده التى اشترتها له من أغلى الماركات و أفخمهـا ، و ها هى أوراق ملكيته للسيارة موثقة من القنصليـة المصرية ، و هـا هـى رزمـة الـدولارات فـى جيـب بنطلونه !! .

.. اذن كل ما يحدث حقيقى :

و لكن ما سببه ؟؟!! .

ما هو السر الذى يختفى عنه حتى الآن ؟؟!! .

هل الهانم تحبه ، لقد عاش معها أكثر من شـهر فلـم يلحـظ فى سلوكهـا ما يشين ، بـل هـى سيـدة شرقيـة

تحافظ جيدا على الأعراف ؟؟!! .
هل هناك صفقة مخدرات وراء شحن السيارة خاصة و أنها باسمه ، هذا كلام معقول حسب ما قرأ و شاهد من أفلام سينمائية ، عن العصابات التى تستغل حاجة العائدين الى بلادهم للمال ، خاصة من الذين لم يوفقوا مثله الى تحقيق أحلامهم ، و تورطهم فى نشاطها الاجرامى ، و هم لا يعرفون شيئا عما يحاك بهم ، أو عن المخفيات داخل ما يحملونه لهم من حقائب أو سيارات ، و ينتهى الأمر بهم الى المؤبد أو الاعدام .
مصيبة يا سيد لو أن الهانم من هذا الصنف ، و تضيع و يضيع معك المعلم عبده الذى يراك حياته ، و أيضا سوف تصاب الست أم سيد بالشلل هذا اذا لم تلحق بك فى الآخرة !! ..
و لكنك يا سيد حضرت شحن السيارة على الباخرة التى حملتها ، و قد فتشتها الشرطة اليونانية تفتيشا كاملا ، و لم يجدوا شيئا مخالفا .
.. و ما يدريك ، لعل الشرطة متواطنة معها ، لقد شاهدت فيلما ضابط الشرطة هو تاجر المخدرات ؟!

اذن و ليطمئن قلبك اسأل عن الهانم التى لا تعرف لها اسما حتى الآن ، و لكنها بالقطع سوف تخطرك باسمها قبل أن تسافر ، حتى تستطيع مراسلتها أو طمأنتها على سيارتها التى تساوى آلافا مؤلفة من الدولارات ، و حتى لو حدث عليك أن تسأل .

– ٢ –

لم يكن أمام سيد غير المقهى الذى يتجمع فيه المصريون كل ليله ، و صاحبه جريجى عجوز عاد من مصر منذ سنوات قليلة ، و يحب المصريين جدا ، حتى أنه يقرض المحتاج منهم ، و يقدم لهم المشروبات بالمجان فى المناسبات الخاصة ، و يقول دائما إن مصر لم يخربها غير عبدالناصر لأنه أراد أن يعزلها عن العالم ، و مصر طيلة عمرها قلب العالم و أم الدنيا .

و كان الخواجة كراميدس ، و يطلقون عليه " كراملة " يجد من يخالفه الرأى فى عبدالناصر ،

فلا يغضب ، و قول كلمته المشهورة :

ـ شوف خبيبى أنت لك رأى ، أنا لى رأى ، كـ . واحد حـر .

و يضحك سيد من راى كراملة و يقول :

ـ شوف كراملـة ، لـو أن هـذه المناقشـة حدثـد عندنـا فـى مصـر كـان لابـد و أن تنتهـى بخصـام و ضرب ، هذا اذا لم تنته الى القتل !! .

دخل سيد المقهى ، فاستقبلته المجموعة المصريـة بالتهليل ، متسائلين عن سر اختفائـه طيلـة الأسـابيع الماضية ، فاعتذر بأن العمل كان متصلا ليل نهـار لتغيب بعض العاملين .

ثـم و بعـد أن شـرب الشـاى المخصـوص ، قـال لأقرب واحد منهم هامسا :

ـ لقـد نزلـت عندنـا بـالفندق منـذ اسـبوع سـيدة مصرية مثل القمر : أناقة ، جمال ، ثراء ، كرم ، و لقد تحدثت اليها ، لكنها غامضة جدا حتى اسمها لـم استطع الوصول اليه .

قال جاره ضاحكا فى سخرية ، و هو ينشر الخـبر بين الجميع عن طريق رفع الصوت :

- يا جماعة تصوروا سيد لم يعرف بحكاية مدام حبيبة المصرى .

استنكر الجميع أن يكون سيد على هذا القدر من الجهل ، فلا يعرف أهم و أعظم شخصية من مصر فى أثينا ، ثم تدفقت الكلمات ، و تدفقت المعلومات ، فعرف سيد أنها سيدة أعمال استولت الدولة على أموالها و ممتلكاتها لاتهامها فى احدى قضايا الأموال ، و أنها تحب المصريين أهل بلدها جدا ، و لكنها تتعامل معهم بحذر شديد ، معتقدة أنهم جواسيس أرسلتهم الدولة لاختطافها و اعادتها الى مصر لمحاكمتها .

و وجد سيد نفسه أمام حقيقة حبيبة ، و عرف أنها قد كسرت الحواجز بينها و بينه لأنها صادقة فى كونه يشبه أخاها الذى أستشهد فى حرب ٧٣.

و حين عاد سيد الى حجرته بالفندق ، أمسك بسماعة التليفون و طلب رقم الهانم ، و قال لها :

- يا حبيبة هانم حضرتك أنبل انسانة فى الدنيا.

و حين تساءلت فى قلق عن اسم المتحدث ، أيقن سيد من الخوف الذى ظهر فى نبرات صوتها ان

كل ما قيـل عنهـا بـالمقهى هـو صـدق مـن صـدق ، فهمس مخلصا :

ـ خدامك سيد .

قالت تلومه :

ـ أهكذا ظللت تسـأل حتـى عرفـت ، غـدا سـوف أوضح لك سبب كتمـان اسـمى عنـك ، ثـم مـا هـى حكاية خادمى هذه ، ألم تقتنع بعد أنـك أخـى ، علـى كل حال تصبح على خير ، فقـط لا تنـس أن موعـد طـائرتك غدا مساء .

قال من كل قلبه :

ـ تصبحين على خير دائما يا أعظم مصرية .

و ارتمى سيد على الفراش المائى يتماوج معه وهـو فى حالة من الرضا و راحـة البـال ، و سـرعان ما داعبه النوم فنام .

ـ ٣ ـ

استيقظ سيد على صوت نقرات على باب حجرتـه ، و أسرع يرتـدى ملابسـه ، فهـو قـد أصبـح يتشـبه

بالممثلين فى الأفلام الأوربية ، و ينام بدون ملابس ، و لم لا وهو فى أوربا ، ألا يكون أوربيا مثلهم ؟.

كانت حبيبة تقف متألقة الوجه كعادتها ،سألته :

– رننت لك جرس التليفون طويلا منذ دقائق ، و لكنك لم ترد على التليفون ، قلقت عليك ، فجئت أطمئن عليك ، اسمع يا سيدى كنت أحب أن تكون على غير علم بحقيقتى ، و لا باسمى لأننى لا أريد أن أتسبب لك فى أى احراج مع السلطات فى مصر ، و لهذا أرجوك أن تخفى معرفتك بى تماما عندما تصل الى مصر ، و أرجو ألا تكون قد حكيت لاخواننا المصريين هنا عما كان بيننا .

قاطعها سيد متحمسا و هو يقول :

– أولا انت شرف لأى بلد تكونين منه ، و ثانيا أنا قلت أنك تنزلين فى الفندق فقط .

قالت فى ارتياح تغير موضوع الحديث :

– هه .. ألن تكلم والدك حتى يكون فى انتظارك بالمطار الليلة .

قال سيد :

– مصاريف بدون داعى ، لماذا لا أترك الأمر

ليكون مفاجأة ؟ .
قالت وهى تتقدم الى حيث التليفون ، وتطلب الرقم :
ـ هيا تفضل كلم الوالد العزيز ، ولا تكن سخيفا.
و تحدث سيد الى المعلم عبده ، و لو أدرك ما سيحدثه خبر عودته الى مصر فى ذات الليلة عند والده ، لدفع سيد عمره من أجل أن تتم هذه المكالمة.
و وضع سيد سماعة التليفون و الدموع تتسال على وجهه ، ثم خر يقبل يدى حبيبة .
فوجئت السيدة بهذا التصرف ، و حاولت جاهدة أن تمنع سيد من تقبيل يديها ، و لكنه كان يزداد تشبثا بتنفيذ ما يريد .
و حين نهض ، نظرت اليه حبيبة فى اشفاق و عيناها ممتلئتان بالدموع ، و قالت :
ـ يا سيد أنا غاضبة جدا مما فعلت ، أرجوك لا تعد إلى ذلك لا معى و لا مع غيرى ، و مهما حدث .

فى مطار القاهرة ، كان المشهد مؤثرا للغاية ، فلقد اصطحب المعلم عبده كل عمال المحل ، و صحب معه زوجته ليكون الجميع فى انتظار سيد ، و لأنه لم تكن هناك سيارة واحدة تستطيع أن تسعهم ، فلقد استأجر المعلم عبده سيارة مينى باص ، و وقفوا جميعا يبحلقون فى قلق فى كل من يخرج من صالة الوصول ، حتى تعبت عيونهم ، و تعبت أرجلهم من الوقوف ، فقرر المعلم عبده أن يصحب الست أم سيد الى أحد المقاعد الجانبية و يجلسان ، على أن يبلغهما أحد العمال فور وصول سيد .

و لقد وصل سيد تماما فى الموعد الذى حدده ، و حين بدا لهم و قد ابيض لونه صرخ الولد حمامه الصغير :

- يا حاج عبده ، الدكتور سيد وصل .

و تسابق المعلم عبده و الست أم عبده فى أن يصلا بأسرع ما تستطيع أقدامهما التى أجهدها الروماتويد الى حيث مكان الخروج ، و ما ان أطل

سـيد يدفـع العربـة الصغـيرة المحملـة بالحقـائب الضخمة حتى نسيت الست أم سيد كل مـا عـاهدت الحاج عبده على ألا تفعله ، و وضعت اصبعها أمام شفتيها ، و أطلقت زغرودة جعلتها محط عيون كل من كانوا بالمطار ، و أسرع سيد يسكتها بأحضانـه و قبلاته ، و أسرع عمال المحل يحملـون مـا فـوق العربة ، و يضعونه بالميني باص .

و يركـب الجميـع السيارة ، و فـى الطريـق يؤكـد سـيد أن كـل واحـد لـه هديتـه ، وحيـن ذاك اسـتدار سائق الميني باص قائلا :

ـ لا تنسنا يا دكتور ، من حضر القسمة فليقتسم.

قـال سـيد و هـو يدخـل أصابعـه فـى حقيبـة يـده المكتظـة بـالنقود ، و يخـرج منهـا مائـة دولار ، ثـم يناولها للسائق ضاحكا :

ـ أعتقد أن هذه أجمل هدية .

نظر السائق الى مجموعة الأوراق من فئة العشرة دولارات و كـاد يجـن فلقـد أوقـف السـيارة ، و قفـز يقبل سيد فى امتنان قائلا :

ـ ربنا يكرمك يا ملك الكرم .

ثم عاد ليقود السيارة و هو يطلق النفير بطريقة منغمة تموج بالفرح ، و هو ما جعل المعلم عبده يميل على ابنه سيد متسائلا :

– ماذا أعطيت السائق ليجرى له ما جرى ؟! .

و لما أخبره سيد بما فعل ارتعدت ملامح المعلم من كظمه الغيظ ، فمال سيد عليه هامسا :

– لا تقلق يا حاج لقد أكرمنى الله ، و خير ربنا وفير .

.. ثم ضرب بيده على الحقيبة المنتفخة ليطمانه ، و هنا ارتخت عضلات الحاج ، و تنهد فى ارتياح ، و صاح السائق و هو يوقف السيارة فى زقاق الفحامين :

– حمدا لله على السلامة يا أجدع دكتور .

الفصل الخامس

السيارة المذهلة

أثارت هدايا سيد الكثير من الأقاويل فى الزقـاق ، البعض نظر اليهـا علـى أنهـا تظـاهر و منظـرة ، و البعض الآخر رآها كرما و طيبة و حسن أصل ، و لم لا و المعلم عبده من أكرم تجـار زقـاق الفحـامين ان لم يكن هو الكريم الوحيد بينهم ، فلقد عهـد فيهـم حب المال الذى أورثهم البخل !! .

و كان سرور عـلا بهدايـا خطيبهـا سـيد عظيمـا ، حتى أنها لم تملك عواطفها و طبعت قبلة على خـده أمام أمها ، التى لم ينس سيد أن يأتيها بمجموعة من الملابس الثمينة .

و بعد أن تم توزيع الهدايا تفرغ سيد للحديث عـن سيارته القادمة خلال أيام بالبحر ، و لم يصدقه أحـد ، فلا يعقل أن يهون عليه أن يترك مثل تلـك التحفـة تبحر بدونه ؟! .

و كان تعليق سيد دائما :

– لقد فعلت ذلك حقا ، لأن وقتـى ضيـق فأجـازتى قصيرة ، و لأنكم أوحشتمونى جدا ، كـانت الطـائرة

هـى الأكـثر راحـة و الأســرع ، فقـررت أن أجــئ بالطائرة ، على أن تلحق بى سيارتى .

و حين يسألونه :

ـ و من أين لك كل هذا المال يا سيد ، هل كنـت تتاجر هناك فى الممنوعات يا دكتور ؟!! .

كان سيد يتغاضى عن الغمز و اللمز ، و يقول :

ـ و الله الدنيا حظوظ ، و اجتهاد ، و أنا اجتهدت ، و خلال شهور رقيـت مـن عـامل عـادى مـن فئـة المئتي جنيه فى الآسبوع الـى رئيـس ورديـة بـألف جنيه ..

.. و يقاطعه المستمع منبهرا يتساءل :

ـ فى السنة يا دكتور ؟!! ..

و يجيب سيد ببساطة متناهية :

ـ بل فى الاسبوع يا هندسة !! .

.. و هكذا نفذ سيد مـا عـاهد عليـه ، و لـم يـأت بسيرة ملاكه الحارس حبيبـة هـانم ، حتـى فـى أشد لحظات العرفان و الشوق كان يبتلع اسمها من علـى طرف لسانه ، و يسكت .

و جاء اليوم الموعود ، و أخطرته الشركة الشاحنة

بوصول السيارة الى ميناء الأسكندرية .

و لما علم المعلم عبده ، و انتشر الخبر فى الزقاق فأثار حالة من الترقب و التحفز ، و أصرت أم سيد على أن تصحب ابنها الى الأسكندرية ، حتى علا و أمها أصرتا على مرافقتهم ، مخالفتان الأعراف و التقاليد التى تقول بأن الخطيبة لا تخرج مع خطيبها حتى يعقد قرانهما ، و لكن أى أعراف تلك التى تقف أمام شبق الرغبة في الاكتشاف و المشاهدة ، و بعد أن أقسمت علا أن تكون أول من يركب السيارة فى مصر ، خاصة بعد أن قال لها سيد أنه لم يحضر السيارة الا وفاء لعهده معها و إلا لتركها باليونان و ما كلف نفسه كل تلك المصاريف التى أنفقها على شحنها ذهابا و عودة ، ثم أكد ذلك قائلا:

ـ .. و هذا كله يهون أمام رضا القمر !! .

.. و سرعان ما ظهر فى الأفق سائق الميني باص و بلا سبب أكثر من أنه كان فى الجوار و وجد أن من واجبه أن يحيى أبو الدكاتره ، و حين علم السائق أن الدكتور سيد يرغب فى السفر الى الأسكندرية لاستلام سيارته من الجمرك ، أقسم أنه

سوف يرافقهم ، ليرد بعضا من شهامة و مجدعة الدكتور ، و أيضا لأن زوج أخته يعمل مستخلصا بالميناء ، و هنا وجد المعلم عبده أن المشكلة قد حلتها الظروف ، فاتفق مع السائق على أن يحضر في الصباح ليقلهم الى الأسكندرية.

ـ ٢ ـ

أمام مئات من السيارات ، توجهت علا الى أجمل سيارة و قالت :

ـ أهذه هي السيارة التي حدثتني عنها ، كم هي جميلة يا سيد .

قال سيد :

ـ لا ليست هي .

تدخل السائق و اتجه الى سيارة أقل منها جمالا و قال :

ـ بالتأكيد هذه هي .

تدخل زوج شقيقة السائق و هو يشير بالأوراق الى سيارة وقفت وحيدة في كبرياء ، و كأنها تأنف

أن تقف بجانب ذلك الرتل من السيارات ، هى ليست سيارة ، و لكنها تحفة أمريكية ذات لون ذهبى ميتالك يضوى تحت الشمس فكأنه الذهب ، و قال :

– هذه هى سيارة الباشا .

شهقت حمات سيد فى انبهار :

– هى معمولة من الدهب يا سيد ؟! .

و قالت أمه و هى تمنع نفسها من السقوط :

– يا لهوى يا سيد دى أكبر من بيتنا !! .

.. و اكتفى المعلم عبده بالمشاهدة المشدوهة ، و ساركته موقفه الآنسة علا ، فلم يستطيعا أن ينطقا و لو حتى بكلمة : مبروك !! .

بينما قال السائق لنفسه : لقد ظلمك الدكتور و بخل عليك حين أعطاك المائة دولار ، فالمفروض على من هو فى مثل ثرائه أن يجعلها ألفا !! .

لهذا أسرع يميل على زوج أخته و يهمس فى أذنه:

– لا تأخذ منه أتعابا أقل من الآلف جنيه .

فلكزه المستخلص بكوعه يسكته ، و سرعان ما انتهت اجراءات الافراج المؤقت عن السيارة . وأمام الاحترام الذى أظهره المستخلص للدكتور سيد

، و التمنع الذى أبداه حين طلب منه أن يقدر ما يريد من نقود نظير أتعابه ، أخرج الدكتور سيد من حقيبة يده التى مازالت منتفخة بالدولارات ألفى دولار وضعها فى كف المستخلص ، فنظر الى السائق نظرة من يريد أن يقول : أترى يا غبى !! .

و دعا سيد الموجودين الى أن يركبوا السيارة ، ثم مال على سائق الميني باص و وضع فى يده مبلغا كبيرا جعله يعود الى حالته السابقة من السعادة .

و كحين استقر المعلم عبده داخل صالون السيارة و بجانبه أم سيد و أم علا ، كانت أول كلمة قالها :

ـ الحمد لله يا سيد يا ابنى ، أنك لم تأت بهذه السيارة لتبق فى مصر .

و هنا أخذ الطمع بلب علا فقالت فى تعال :

ـ و هل سيد شخصية ضئيلة يا عمى حتى لا تكون له مثل هذه السيارة ؟!! .

قال سيد :

ـ أبى معه حق يا علا ، و اذا كنت أرى أنه من الممكن أن أبقيها فلماذا لم أفعل ، بل لقد أحضرتها الى مصر لكى تسعدوا بكل ما تمتعت به فى اليونان

ثم هل تدرين : ما مقدار جمارك هذه السيارة يا علا ؟ .

.. و لم ينتظر سيد أن تجيبه علا و استطرد فى غيظ كظيم :

ـ مليون جنيه بالتمام و الكمال ، و اذا لم أعيد السيارة لليونان ، على أن أدفع مليونى دولار غرامة ، و الآن ما رأيك فى أن نبقى السيارة ، و فى هذه الحالة لن نستطيع الزواج طيلة عمرنا ! .

ـ ٣ ـ

و حين خرجت السيارة الى خارج الدائرة الجمركية ، و بدأت تشق شوارع الأسكندرية متجهة الى الطريق الصحراوى ، كانت صرخات الإعجاب تنطلق من السيارات التى تمر بجوارهم ، و تنفذ إلى أسماعهم رغم الزجاج المغلق ، فكانت علا تشعر بنشوة هائلة ، و كأنها كلمات اعجاب بها هى !! .

بينما كان المعلم عبده يطلق كلمات الدعاء لله بأن يحفظ ابنه سيد من كل حاسد اذا حسد ، و من شر

النفاثات فى العقد ، و كانت أم سيد تفعل مثلما يفعل زوجها .

و لقد شغلتهم هذه المظاهرة من الاعجاب عن ملاحظة تتبعهم بسيارة يركبها ثلاثة غريبو الأطوار هم : سعد الغضبان و هو رجل ضئيل الجسم سريع الغضب ، و اسماعيل زقلط و يبدو أنه ميكانيكى سيارات ، و سلامة القصير ، و أسمه عكس حجمه فهو طويل القامة بشكل لافت ، و كان من الواضح أنهم مصرون على تتبع السيارة أينما ذهبت ، و هو ما كان يجعل اسماعيل يقدم على القيادة بتهور نتيجة لفارق السرعة الضخم بين سيارة سيد و السيارة التى يركبونها ، حتى لقد تساءل اسماعيل أكثر من مرة موجها غضبه الى قائدهم :

ـ ألم أقل لك يا أستاذ سعد نتحرك بالسيارة الكبيرة أفضل !! .

و حين وصلت السيارة الى القاهرة ، و شقت طريقها فى خيلاء عبر الشوارع الى شارع العباسية فزقاق الفحامين ، اذ بكل سكان الزقاق واقفون أمام المدخل الرئيسى ينتظرون سيد و أول الفاتحين من

أبنـائهم ، و حيـن طـالعتهم السيارة قفزت ارواحهـم الى الحلقوم ، و أصبحت النية مبيتة عنـد كـل أسـرة أنها سوف ترسل أكبر ابنائها بعد تدبير ثمـن تذكـرة الطيران الى اليونان أو أمريكا أو ألمـانيا أو أى بلـد يشير به سيد عليهم فسيد هو خبرتهم الأولى فى هذا الأمر ، و لابد من مشاورته فى الأمر !! .

و حين تم وضع السيارة فى نهاية الزقاق ، شارك كل الموجودين فى المساهمة بمـلاءات السـرائر فـى تغطية جسم السيارة مـن الخـارج ، و قـرر سـيد أن يصحـب خطيبتـه و أمهـا لتتوصيلهمـا فـى تاكســى خوفا على السيارة من أية مخاطر .

و هنـا فقـط تحركـت سـيارة الثلاثـة المجهوليـن مبتعـدة ، و علامـات الراحـة تبـدو علــى مظهرهـم لأول مرة منذ بدأوا تنفيذ مأموريتهم .

.. فوجئ سيد بثورة عارمة من عـلا وهمـا فـى التاكسى لأنه لم يوصلها بالسيارة الجديدة الى البيت.

و حين أوضــح لهـا سـيد أنـه لـم يعتـد علـى نظـام القيادة فى مصر لأنه تعلم القيادة فى اليونان ،و لأن السيارة مادام لم تدفع جماركها فهى أمانة فـى عنقـه

و عليه أن يحافظ عليها من أى ضرر ؛ سخرت منه بشدة ، و أنهت كلامها قائلة :

ـ بل هى تصرفات المحرومين حين يشبعون !.

و تركته فى السيارة و نزلت ، و لم تدعه للنزول معها ، و سيد فى غاية الخجل من السائق الذى ظهر الاشفاق على وجهه ، ثم لم يتمالك السائق نفسه فقال له غاضبا :

ـ يا بك هذه البنت مهما كان أمرها بالنسبة لك لم تحسن تربيتها ، و اذا كانت خطيبتك فعليك أن تتفكر مليون مرة قبل أن تقدم على الزواج منها .

و بعد أن عاد سيد الى البيت ، انفرد بنفسه فى حجرته ، و أغلق بابها من الداخل ، و راح يفكر فى حكايته مع علا ، و بعد تدبر طويل وجد نفسه أمام حقيقة مروعة تقول : ان علا كانت السبب الرئيسى فى تغيير نمط حياته ، و مساعدته فى طريق الانهزام و الفشل ، فى دراسته و فى تقليص آماله و طموحاته .

.. و لم يستطع سيد النوم الا و قد قر قراره على ضرورة انهاء ارتباطه بعلا ، بعد ما أحدثته فى

حياته من فشل ، وبعد ما رأى من تفاهة فكرها ، و ضآلة شأنها ، و غرورها اللامعقول بجمالها ، و امكانية أن تبيع حياتهما فى سبيل نزوة ، و هو ما سمع به من الولد حمامه الصغير ، فلقد جعله هو الرقيب عليها أثناء سفره ، فكان يذهب الى المنطقة ، و يراقب بيتها ، و يوصل رسائله اليها ، من أجل أن يتابع تحركاتها و تصرفها أثناء غيابه ، و لقد أخبره حمامة بأن هناك شاب ثرى يركن سيارته أمام شباكها ، و يروح يشير اليها و هى تبتسم له مشجعة ، و لقد أدرك سيد أنها لم تكن تحبه لذاته ، و لكنها كانت تحبه لأنه ابن المعلم عبده صاحب البيت و أغنى أغنياء زقاق الفحامين ، و أنه كان بالنسبة لها مجرد منفذ لسلسلة مطالبها المادية .

و فى الصباح أخبر سيد المعلم عبده بما قرره بخصوص علا ، و طلب منه أن يبلغ أمه بما تم ، و بأنه اذا ما عاد لليونان فسوف يخصص جزءا كبيرا من وقته للدراسة ، و البحث عن طريق للعلم و النجاح .

و لقد احدث كلام سيد فى نفس المعلم عبده الكثير من الحبور ، فما أن انتهى من حديثه حتى احتضنه المعلم وراح يقبله فى تأثر شديد و دموعه تسيل على خديه .

أما السيارة الصغيرة فلقد عادت بركابها الثلاثة مع أول خيط من خيوط النهار ، و فى خفة فتح اسماعيل زقلط سيارة سيد و نزع جزءا من أجزاء الموتور ، بينما كان سعد يراقب الزقاق ، و سلامة يساعد اسماعيل فى تسهيل عمله .

و حين قرر سيد أن يصحب المعلم عبده الى الطبيب ، أدار موتور السيارة فلم يستجب ، و أصيب سيد بفزع شديد فالسيارة أمانة فى عنقه ، و قد أخبرته حبيبة هانم أن هذا النوع من السيارات قد صنع بطريقة تجعله لا يعطل لسنوات طوال قد تمتد لعمر مالكها !!

هنا تقدم اسماعيل و كان يراقب الموقف مع سلامة ، و قال انه ميكانيكى سيارات ، ثم فتح غطاء الموتور ، و فى خفة أخرج القطعة التى سبق و انتزعها من جيبه ، و أعاد تركيبها فى مكانها ثم

طلب من الحاضرين أن يدفعوا السيارة حتى تعمل ، و حين وصل الى الشارع الرئيسى ، ادار الموتور ، و أسرع سلامة بالركوب الى جانبه ، و انطلقت السيارة مبتعدة ، و سيد مذهول مما يرى ، و قد توقف فكره تماما ، فلم يعد يستطيع التصرف !! .

الفصل السادس

حياة جديدة

- ١ -

ظل سيد فى ذهوله لا يغادر البيت و المعلم عبده يطمئنه لأن السيارة من الصعب أن تختفى فى مصر كلها لأنها وحيدة و متميزة ، و لذلك فهو يرجح أن يكون الميكانيكى يجرى تجربتها ، و لو أخرت عودتها عن ساعتين فسوف يذهب معه الى الشرطة للإبلاغ عنها ! .

و لكن سيد لم يتوقف عن القلق ، و الحديث عن واقعة الاختطاف ، و تفلت منه كلمات كلها تدور حول كون السيارة أمانة فى عنقه ، و عليه أن يحافظ عليها ، و أن يعيدها سالمة .

و لم يكن من البد بد ، فانفرد به المعلم عبده ، و قال له و هو فى غاية الإشفاق عليه :

- صارحنى بالحقيقة يا سيد ، ما هى حكاية هذه السيارة ، تكلم يا ابنى فأنا أبوك ، أنا سرك ، و سترك ، و من يحبك و يخاف عليك ، فأنت كل ما كسبته من دنياى ، تكلم يا سيد و لا تحمل أباك كل هذا الهم الذى لم أعد أحتمله يا ابنى ،

و أنا أراك منذ عدت مهموما رغم تظاهرك بالنجاح و الفلاح ، صارحنى ، و ربنا قادر على أن يفك كربك .

انسابت دموع سيد ، فلقد وجد أبو سيد يشعر بكل الكرب الذى كان فيه طيلة أيام الغربة ، و حكى لأبيه كل ما ما حدث له فى طريق الغربة ، و قصته مع حبيبة ، و سأله الأب عن باقى اسمها ، فلم يستطع سيد أن يضيف شيئا و قال أنه قد عرف اسمها من الشباب المصرى هناك ، و أعمل الأب فكره طويلا ، و بعد صمت طال قال لإبنه :

ـ يا سيد هذه السيدة واحدة من اثنتين : اما أنها ملاك أرسله الله لك فى صورتها البشرية لتحميك و تخفف عنك غربتك ، و اما وراءها سر كبير ، و لأن الدنيا لم تعد بها ملائكة تظهر بين الناس مطمئنة فتمشى فى الأسواق ، كما قال الله ، فاننى أميل للقول بأن هذه السيدة و راء سيارتها سر كبير ، و لا أستبعد أن يكون من هربوا بها من رجال حبيبة فى مصر ، لأننى

أشك فى أننى قد رأيتهم فى الميناء بالأسكندرية ، و هم سيضعون بها شيئا يخفونه عن الأنظار ، ثم يعيدون السيارة اليك ثانيـة حتى تتمكن من تهـريب ما أخفـوه و توصيله اليها .

و صدقت توقعات المعلم عبده ، فلقد أعـاد الأسطى اسماعيل زقلط السيارة بعد ثلاث ساعات معتذرا عن التـأخير لعـدم وجـود قطـع غيـار للسيارة بالسوق المصرى ، و اضطراره لاصلاح الجزء التالف .

و حيـن أخـرج سـيد مجموعـة مـن الأوراق المالية يناولها له ، رفض الأسـطى اسماعيل أن يقبلها ، و وعد بأنه سـيحضر حيـن يسافر سـيد ليرافقه فى رحلة العودة الى الأسـكندرية ، حتـى يعالج أى عطل قد يحدث للسيارة بالطريق .

و قال الأب بعد أن ابتعد اسماعيل زقلط :

- بل هو يريد أن يطمئن على سلامة ما أخفى بالسيارة ، و الى خروجك من الميناء .

انفرد الأب بسيد ، و بعد حديث هامس ، افتعلا القيام بتنظيف السيارة ، و بدآ يخرجان كل ما يمكن اخراجه فبدآ باخراج المقاعد المخملية الرائعة و راحا يمسحانها بقطعة من القماش النظيف ، و هما فى الحقيقة يفتشان عما خبأه المختطفان بداخلها ، و لكنهما لم يجدا فى الصالون الداخلى أى شئ مريب.

.. ثم تحولا الى حقيبة السيارة ، فأخرجا السجاد الشينواه الذى فرشت به أرضيتها ، و الكوريك الأوتوماتيكى ، و الاطار الاحتياطى ، الى أن وصلا الى صاج الأرضية ، و لم يجدا شيئا .

و لم يعد أمامهما غير الجسم الخارجى للسيارة ، فراحا يغسلان الاطارات الكاوتشوك الضخمة ، و يدقان عليها فترن فى استجابة تؤكد أنها خاوية من داخلها و ليس فيها غير الهواء ، و

يجذبان موانع التصادم الضخمة لعلها تنجذب للخارج فيظهر ما تخفى وراءها .
.. و انتهى أمر التفتيش الثنائى من المعلم عبده و ولده سيد الى عدم اكتشافهما لشئ مخبأ بالسيارة.
.. و اطمأن سيد .
و لكن المعلم عبده لم يطمئن ، و ظل الشك يتقافز
داخل عقله ، و لم لا و ابنه قد أصبح فى دائرة
الخطر و الضياع ؟! .
و بعد قليل سأله أن يسافر الى الإسكندرية وحده ، فاذا ما تبعوه فسيدرك أن الأمر فيه ما يريب ، و اذا ما لاحظ عدم تتبعهم له فلعل شكوك الأب تستريح .
و كانت فرصة لسيد حتى ينفرد بنفسه ، و يبتعد عن قلق أبيه ، و ذكريات حبه الفاشل لعلا التى اكتفت بما غنمت من ورائه ، و لم تفكر هى و لا أمها أن يتصلا به !! .

و بدأت رحلة سيد مع الفجر ، و لأن الطريق فى مثل هذا الوقت المبكر يكون خاليا تقريبا من المارة و السيارات فلقد اكتشف بسهولة أن هناك سيارة تتبعه ، ظل يشق طريقه و هو يزيد من سرعة سيارته شيئا فشيئا ، و السيارة المتابعة بدأت تختفى ، و لكنه و جد فجأة أمام تقاطع الطريق الرئيسى مع طريق فرعى حجرين ضخمين يكادان يسدا الطريق ، و أن السيارة مستضمة بهما لا محالة لو لم يتوقف فورا ، و بكل قوته ضغط سيد على بدال الفرامل فتوقفت السيارة دفعة واحدة و بالكاد لمس أحد الحجرين مانع التصادم ، و نزل سيد يستطلع الأمر فوجد رجلا ضخما يقف فى صمت ، و بجانبه امرأة تولول ، و ترجوه أن يذهب معها الى مدينة اكتوبر لأن أختها تموت بعد أن شربت السم لتنتحر ، و لا تجد من يسعفها .

و استجاب سيد لرجاء المرأة ، و أسرع يرفع الحجرين من الطريق ، و قد قدمته لسيد حين ركب بجانبه فى السيارة و قالت :

- زوجى العوضى ، نجار و صاحب ورشة فى الحى الصناعى بالمدينة ، طيب لكن رأسه ناشفة ، فهو يصر على رأيه حتى لو كان خطأ .

زمجر العوضى :

- كلام الرجال لازم يحترم .

قال سيد فى بساطة :

- رغم أنى لا أعرف شيئا عن الحكاية ، الا أن الحياة تعاون و شورى يا معلم عوضى .

قالت الزوجة :

- دائما أقول له هذا ، و هو لا يقتنع و لا يتنازل عن رأيه الا اذا حدثت مصيبة ، و ها هو ذا بعد أن شربت ايمان السم يقول ليتنى تركتها تسافر الى الأسكندرية لتقدم فى معهد التمريض .

قال العوضى فى صدق رافعا كفيه الكبيرين الى السماء :

- ربنا ينجيها ، فليس لزوجتى أحد فى الدنيا غير أختها ايمان ، هى التى ربتها و كبرتها منذ أن ماتت والدتهم و لحق بها والدهم و ايمان

عندها خمس سنين، حتى أصبحت اناديها بـابنتى
.

كان سيد يقود السيارة مطمئنا لأنـه كـان يـرى فى المرآة السـيارة التـى تراقبـه على بعـد قليـل منـه .

- ٣ -

وصل سيد الى حيث أشـارت المـرأة و الرجـل الى منزل العوضى ، و كـان هـو أول مـن هـرول يفتح لهم الباب ، و ينادى :

- امانى ، أمانى ...

و كـان سـيد يتبـع المـرأة التـى تلهـث مـع خطواتهـا المسـرعة ، و صعدا سلما صغيرا ثم دخلا حجرة يتميز فراشها بالبساطة و النظافـة و حسن الذوق ، و أصيب سيد بذهول شديد فلقد كـانت الفتـاة الرائعـة الحسـن الممـددة علـى

الفراش ، كأنها صورة طبق الأصل من حبيبة فى صباها ، و لأنه كانت على منضدة صغيرة بجانب الفراش مجلة على غلافها صورة لحبيبة ذاتها !! .

أفاق سيد على صوت الأخت القلقة تتساءل :

– ألا نحملها إلى السيارة يا أستاذ ؟! ..

نظر سيد إلى الفتاة ، فإذا بها تغمز له بعينها ، و كأنها تخبره بأن ما هى فيه مجرد تمثيلية ، و

و أنها لم تتناول سما ، و لم تحاول الإنتحار ،

ببساطة قال سيد :

– يا جماعة فى الحقيقة أنا طبيب ، و أرجو أن تتركونى و المريضة وحدنا لكى أفحصها ، ثم نقرر ماذا سنفعل .

زمجر عوضى محتجا ، و لكن زوجته قالت :

– لا تقلق على أمانى يا عوضى سوف أبقى مع الدكتور .

و لأول مرة منذ شهور يسمع سيد رنين كلمة دكتور يصيبه بالنشوة و الحبور ، و لذا شمر عن ساعد الدكتور و تقدم الى المريضة ، يمسك بيدها و كأنه يمثل دورا فى أحد الأفلام ، و بعد لحظات نظر الى أخت ايمان قائلا :

ـ ألا يوجد عندكم كوب من الماء المثلج ؟! .

ـ الماء فى الثلاجة يا دكتور .

قال سيد :

ـ اذن فاسرعى باحضاره ، فإن نبض أختك ضعيف جدا !! .

أسرعت الأخت بالهرولة خارج الغرفة ، و أسرعت ايمان تهمس فى أذن سيد :

ـ أرجوك يا دكتور انقذنى من هذا الموقف .

و عادت النشوة تدغدغ مشاعر سيد و هو يستمع لكلمة دكتور ، و همس لنفسه : ما أغبانى حين تمردت على رغبة أبى ، ثم همس بسرعة فلقد عادت الأخت بكوب من الماء ، و خلفها أقبل عوضى متحفزا :

ـ لا تقلقى سوف أخرجك من هذا الموقف .

وضع ايمان فعدلها قليلا ، و وضعه بـالقرب مـن فم تناول سيد كوب الماء من الأخت ، و عدل من ايمان و همس :

ـ ارشفى قطرات .

ببطء رشفت ايمان حبات من المـاء و هـى مغلقة العينين ، و قال سيد لعوضى :

ـــ أرجـو أن تسـند المريضـة مـع أختهـا و توصلاها الى السيارة .

و كما فعل الأسطى إسماعيل زقلط معـه ، قلده سيد و طلب من عوضى و شقيقة ايمـان بعد أن وضع الفتاة الى جواره و جلس الى مقعد القيادة أن يدفعا السيارة لكى يدور موتورها ، فـاذا بـه يفاجأ باسماعيل زقلط و زميله يظهران فجأة مـن وراء أحدى العمارات القريبة و يسهمان فى دفع السـيارة ، و تكـرر المشـهد القديـم فلقـد زمجـر موتـور السـيارة مشـتغلا ، ثـم اندفعـت السـيارة مبتعدة تزمجـر و خلفهـا سـيارة اسـماعيل زقلـط تئن و تلهث فى ملاحقتها .

اتجـه سـيد بالسـيارة الـى طريـق الأسـكندرية الصحراوى ، و بعد صمت لم يطل تساءلت ايمان فى قلق :

ـ إلى أين أرجعنى ثانية الى بيتنا .

قـال سـيد لايمـان ، و قـد إعتدلـت متحفـزة فـى جلستهـا :

ـ بالقطع لن أختطفك ، فـلا تقلقـى ، و لكننـى أرجوك أن تستمعى إلى ، فأنا أشـعر بـأننى تائـه بلا حاضر و لا مستقبل .

هـدأت ملامـح ايمـان ، و انـزاح القلـق عـن وجهها ، و شجعت ملامحها الطيبة سيد على أن يواصل الحديث ، فسـألها عـن سـبب ادعائهـا الانتحـار ، فقـالت أنهـا تظـاهرت بالانتحـار لكـى ترهب زوج أختها و تجعله يخضع لإرادتها كمـا كانت تفعـل ، و لكن يبدو أنه هذه المرة قرر ألا يستجيب لطلبها فى الالتحـاق بمعهد التمـريض بالقسـم الداخلى ، و الاقامة بعيدا عن رعايتـه ، فهو يعتبرها أختا له خاصة و أنه وحيد ليس لـه أخ أو أخت .

و مع كل كلمة كان شعور سيد بالألفة و الراحة يزداد تجاه ايمان ، و ضحك سيد طويلا حين انتهت و وجد نفسه يحكى لها حقيقة ظروفه منذ فشل فى تعليمه و خطب علا ، و عن سفره و متاعبه و قلقه و شكه ، ثم سألها عن السيدة التى شاهد صورتها على غلاف المجلة التى وضعتها على المنضدة القريبة من فراشها ، فقالت له ايمان :

- انه عدد قديم من المجلة و لقد احتفظت به لشدة الشبه بين صاحبة الصورة و بينى ، و لكنى بالقطع لست مثلها .

قال سيد مؤكدا :

- طبعا فهى سيدة ثرية جدا ، فأين نحن من ثرائها .

قالت ايمان :

- بل هى سيدة نصابة ، احتالت على الناس وسلبت أموالهم تحت دعاوى كثيرة ، مرة تزعم أنها تملك أراضى شاسعة و سوف تبيعها لهم ، و مرة تدعى أنها تبنى عمارات و تملك شققها ،

و مرة تذيع أنها سوف تستثمر أموالهم فى مصانعها بالخارج ، و الناس تدفع ما ادخرته لها ، ثم فجأة هربت بكل ما نهبت من أموال الى الخارج .

.. و لما انتهت ايمان من كلامها ، كان سيد قد أصيب بصدمة شديدة .. و أخذ يسائل نفسه فى ذهول : أهذه هى من كان يعتقد بأنها ملاكه الحارس ، فإذا به يتضح له أنها : محتالة ؟! .



الفصل السابع

وداعاً للغربة

- ١ -

.. و صلت السيارة الى مشارف الأسكندرية و الوقت مازال مبكرا ، فسأل سيد ايمان :

- الا توافقيننى على أننا جائعان و يجب أن نأكل شيئا .

قالت ايمان مستنكرة :

- ان ما بجيبك فلوس من حرام ، فهى من فلوس حبيبة التى سلبتها من الناس بدون وجه حق .

قال سيد و قد زادت ايمان قدرا :

- و اذا أقسمت لك أنه منذ داخلنى الشك و نقودها عند أبى ، و أن ما أنفق منه هو من نقود المعلم عبده .

قالت فى مودة :

- إذن نتناول الإفطار ثم نعود الى أختى و زوجها فالقلق لابد أنه يأكل قلبيهما .

.. و بعد أن تناولا السندوتشات فى صمت ، تساءل سيد :

ـ ما رأيك فى هذا الموقف .

قالت ايمان فى ثقة :

ـ سوف نعود ان شاء الله الى مصنع زوج أختى و نقلب السيارة حتى نصل الى السر المخبأ بداخلها.

قال سيد :

ـ إذن على أن أتخلص من رقابة العصابة .

ـ ٢ ـ

نجح سيد فى التخلص من سيارة العصابة بعد سلسلة من التمويه ، ثم عاد الى مدينة اكتوبر ، و أسرع بادخال السيارة الى ورشة عوضى و اغلق الباب ، و حين ظهر عوضى مزمجرا و ثائرا يسأل :

ـ أين كنت يادكتور طيلة هذا الوقت ؟! .

قال سيد :

ـ لقد ذهبت بالآنسة الى أقرب مستشفى و أجريت لها عملية غسيل و تغذية ، و كما ترى

الحمد لله أصبحت في أحسن حال ، فقط أرجوك ساعدني في التخلص من أولئك اللصوص الذين يريدون الانفراد بي لسرقة السيارة .

قال عوضي مزمجرا :

ـ لقد غلبتني بمعروفك يا دكتور و سوف أخرج لمراقبتهم .

و خرج عوضي ، و أقبلت أخت ايمان سعيدة تشكر الدكتور على ما قدم من مساعدة .

قال سيد :

ـ اذا كنت تريدين حقا أن تشكريني ، دعي ايمان تساعدني في اختبار العطل الذي بالسيارة ، و جيئيني بكوب من الشاي .

و خرجت أخت ايمان في طاعة لتصنع الشاي ..

و بدأت رحلة البحث من جديد ، و فجأة صرخت ايمان و هي تمسح بيديها على مكان اصتدام مانع التصادم بالحجر :

ـ ذهب .. ذهب ..

و أسرع سيد اليها و راحا يحكان بحذر حول المكان فبدا الذهب يلمع متألقا في الضوء .

و انتهى اللغز ، لقد وضعت العصابة موانع تصادم من الذهب لتخرج مع السيارة ، و هكذا حولت حبيبة الأموال التى لم تستطع تهريبها الى ذهب ، و هى تريد أن تكمل تهريبها كما هربت ما هربته معها عند هروبها من الوطن .

قال سيد :

ـ ما رأيك يا ايمان ؟ .

قالت :

ـ نطمس لون الذهب بهذا اللون الأسود ، و تبلغ البوليس عن السيارة و عن أفراد العصابة .

و لكن هذا غير ممكن بدون مساعدتك يا ايمان فسوف تفر العصابة اذا ما شعرت بأى خطر .

قالت :

ـ اذن لابد من البحث عن سبيل يمكننى من السفر معك الى القاهرة .

قال سيد :

ـ هذا أمر سهل ..

و أقبلت أخت ايمان تحمل صينية عليها أكواب الشاى ، و شكرها سيد ، ثم عرض عليها أن

تصحبه هى و عوضى الى القاهرة لأنه يريد أن يعرض ايمان على أستاذه فى الطب حتى يطمئن على زوال آثار التسمم .

قالت الأخت :

ـ سوف أقنع عوضى بالسفر معك ، و لكن أين هو ؟! .

قال سيد :

ـ بالخارج ..

ثم رشف قطرات من الشاى و قال :

ـ اذا كان الأمر كذلك ، خير البر عاجله ، و لنرحل الآن قبل أن يحل الظلام .

و قبل أن تعترض الأخت كانت ايمان قد أدخلتها الى السيارة ، و انطلق سيد الى خارج الورشة ، ثم نزل و أغلق بابها ، و اتجه الى حيث جلس عوضى على مبعدة يراقب الطريق .

ـ ٣ ـ

نفذ سيد خطة ايمان و أشرك فيها والده ، و تم

ضبط اسماعيل زقلط و شركانه ، و سلم سيد السيارة الى مباحث الأموال العامة ، و تقدم لخطبة ايمان ، و أعلن أنه سوف يعود لمواصلة دراسته ، و لكن بجد و اجتهاد من أجل أن يحقق طموحاته و آمال المعلم عبده .

و بعد شهور اذا بمباحث الأموال تطلب سيد لتسلمه نسبة العشرة بالمائة ، و كانت تساوى أكثر من مائتى ألف جنيه ، و لكن سيد أعلن تنازله عن مكافأته لصالح ضحايا حبيبة ، و اعتبر أن مساهمته فى اعادة بعض حقوق أهل وطنه اليهم ، هى أهم انجاز حققه طريق الغربة .

تمت بحمد الله فى ٢١ يوليو ١٩٩٥

صدر للمؤلف :

** **عنترة هذا الزمان**
مجموعة قصصية ١٩٩٤

** **طـريق الغربـة**
روايـــة ١٩٩٥

تحت الطبع :

** **أحـاديث فى السياسة و المجتمع**
مقـــالات

رقم الايداع ٨٦٠٣ / ٩٥

الذهبي
للطباعة
يسري حسن إسماعيل
شارع عبد العزيز - الهدارة ٢ عابدين
ت ٣٦١٠٠٧٥